الرمزية الوثنية في مدينة كالاما (قالمة) وضواحيها من خلال بعض مشاهد الأنصاب النذرية والجنائزية للفترة القديمة.

د. زروال زكية، (المدرسة العليا للفنون الجميلة- الجزائر العاصمة).

ملخص:

إن الهدف من دراسة الرمزية في الفترة القديمة هو تسليط الضوء على مختلف المعتقدات الدينية التي كانت سائدة عند المجتمعات المحلية والأجنبية الشرقية والغربية، من جهة، ومن جهة أخرى فهي تلعب دورا حاسما في فك لغز الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي امتازت بها حضارات العالم القديم .

و لقد انصب اهتمامنا في دراسة الرمزية من خلال الأنصاب النذرية والجنائزية للفترتين النوميدية البونية والرومانية التي تم الكشف عنها في مدينة كالاما القديمة (قالمة) وضواحيها، حيث أثبتت نتائج دراسة رموز هذه المعالم الدينية أن المعتقد المحلي تأثر بالديانات الأجنبية وعلى الخصوص الفينيقية والمصرية والرومانية ويظهر جليا من خلال امتزاج وتطابق بعض المعبودات فيما بينها لغرض اجتماعها بفكرة الخصوبة والحياة.

الكلمات المفتاحية : كالاما، الرموز الوثنية، الأنصاب النذرية والجنائزية، الرمزية، الرموز،الخصوبة، الماء، تبادل ثقافي، نوميديا، الفترة النوميدية البونية، الفترة الرومانية.

Abstract

The purpose of this paper first aims at exploring, through some symbolic signs, different beliefs spread in local and foreign eastern and western societies during the Roman era. Second, it attempts to disambiguate the meaning of these signs, which were related to the social, political and cultural life of those times. As far as the methodology is concerned, we applied a descriptive analytical approach to the corpus under study The data were collected from the Numidian, Punic and Roman funeraries and votives monuments, found in the ancient city Calama (Guelma).

The results of this investigation showed that the religious symbols help us to understand some hidden beliefs of the cultural life in Calama.

More over it is possible to affirm that not only the Numedian cultural life was widely influenced by the Phoenician, Egyptian and Roman civilizations but it impacted other cultures too. This was particularly visible through symbols referring to fertility, and water which were at the core of social and political empowerment.

Key words: Calama, Paganism symbols, fertility, water, cultural interinfluence, Numedia, funerary monument, votive monument.

مقدمة:

تعتمد الرمزية على دراسة الرمز كما تخبرنا عن خفايا الديانات والمعتقدات التي اعتنقتها الشعوب القديمة، ولقد تأثرت الديانة النوميدية المحلية وأثرت بدورها بعض المعتقدات البونية والرومانية ونتج عن ذلك امتزاج وتطابق بعض المعبودات مع بعضها كونها تجتمع في بعض الخصائص وعلى سبيل الذكر تلك التي لها علاقة بالحياة كعنصري الشمس والقمر اللذان جسدهما الفنان النوميدي على مختلف الفنون من أهمها القطع النقدية التي تؤرخ في الفترتين النوميدية والرومانية التي سكت تحت حكم الملوك سيفاكس وماسينيسا ومكيبسا ويوبا الأول ويوبا الثاني وبطليموس أوالمصابيح الفخارية التي تعود إلى الفترة الرومانية التي تنص قصص وأساطير ميتولوجية تتعلق بمعبودات تبنتها شعوب حضارات المشرق كبلاد الرافدين وسوريا وفينيقيا ومصر وبلاد اليونان وروما ومستعمراتها وعلى الخصوص الأنصاب النذرية والجنائزية التي تحمل مشاهد إكونوغرافية لها علاقة بالإلهين الرئيسين بعل حمون/ساتورن وتانيت/كايلستس والهة أخرى كماركوريوس ونبتون وباكوس وفينوس ومينارفا ومارس وفورتونا وغيرها.

ولقد تم الكشف على هذه المخلفات الأثرية في عدة مدن جزائرية قديمة من أهمها كالاما (قالمة) وسيرتا (قسنطينة) وكويكول (جميلة) وسيطيفيس (سطيف) وروسيكاد (سكيكدة) وإيكوزيوم (الجزائر) وتاموقادي (تيمقاد) ولامبيزيس (لامباز) وغيرها من المدن المشهورة.

و تنقسم الرموز الوثنية إلى عدة أنماط :

- رموز فلكية وتشمل القرص الشمسي والقمر والنجمة.
- رموز ذات الطابع الزراعي وتتمثل في المنتوجات الزراعية البكر كالعنب والرمان وثمرة الصنوبر وقرن الرخاء او الوفرة.
- رمزية الحيوانات كشعارات وكأضحيات للآلهة (ساتورن، كايلستس، جوبيتر، أفريكا، إيزيس).
- رموز/ توابع خاصة بآلهة البحر والمحيطات والمياه العذبة وكل ما له علاقة بالماء.
- رمزية المعالم والأدوات المستعملة أثناء الطقوس الدينية (المبخرة، المذبح، السكين، الفأس، المقص).
- الرمزية الدينية للأسلحة وعلاقتها بالسلطة (الرمح، القوس، السهم، السيف، الخنجر، الدرع والعصا الملكية).
- رموز تعبر على الفوز بالحياة الثانية والخلود الأبدي وتشمل سعفة النخلة وثمرة الصنوبر والإكليل الزهري المزين بأجمل العناصر النباتية الرامزة إلى الخلود كوريقات الرند وشجرة الدالية.

أولا / الرموز في المعتقدات بشمال افريقيا:

تعود أصول المعتقدات الدينية في شمال إفريقيا إلى فترات باكرة، ويظهر ذلك من خلال عبادة السكان القدامى للظواهر الطبيعية وتجسيدهم لبعض المشاهد المعبرة لذلك على مستوى الواجهات الصخرية لفترات ما قبل التاريخ وعلى سبيل المثال تمثيل الكبش المقدس وبين قرنيه القرص أو الكرة ذوي الطابع الفلكي، وهو رمز يرجع الى المعبود المصري « أمون «.

وتعد الفترتين النوميدية البونية والرومانية فترة تشييد الأنصاب والمذابح والطاولات الجنائزية التي جسد من خلالها فنان تلك الفترات مشاهد تتعلق بالمعبودات وأهم توابعها، ومن أهمها عبادة الإلهين بعل حمون ساتورن وتانيت كايلستس، هده الاخيرة قد قابلتها أيضا معبودة أخرى للخصوبة وهي الأم الكبرى "Magna Mater" والتي نجدها مذكورة كثيرا على النقيشات اللاتينية في مدن إقليم نوميديا قديما.

وتطورت رموز هذه المعالم عبر العصور وتواصلت البعض منها وما زالت تستعمل في بعض المناطق على الفخاريات والزرابي.

كما يعود أصل بعض الرموز إلى حضارات أخرى غير محلية نوميدية وهي الحضارات

المصرية وبلاد الرافدين، إذ أن بعضها قد تعرفت عليها مدن شمال أفريقيا بفضل الفينيقيين الذين اعتنقوا بها حين احتكوا وانسجموا بشعوب هاته الحضارات العريقة واعتنقوا ديانتهم بفضل رحلاتهم التجارية التي ساعدتهم على إثراء ثقافتهم وديانتهم واقتصادهم.

فبفضل السجل

الإكونوغرافي الوثني الخاص بالمعالم نتعرف على الديانات التي تعاقبت عليها شعوب الفترات القديمة منها المحلية البونية ثم الرومانية والتي أدخلت من خلالها آلهة رومانية وشرقية أجنبية كانت ربما تحمل نفس صفات وخصائص الآلهة المحلية الليبية.

و كما ذكرناه سالفا، فمن خلال هذه الديانات نتعرف بدون شك على المعتقدات والطقوس الدينية الجنائزية التي عرفتها الشعوب القديمة، إضافة إلى المنتجات الزراعية والحيوانات التي كانت منتشرة ومتوفرة في المناطق والتي كانت تحمل البعض منها قيمة مقدسة وخصائص إلهية تتمثل في القوة والسلطة، كالثور والكبش والأسد، هذا الأخير الذي يظهر على أنصاب مدينة سطيف وجميلة وهو يرافق الإله ساتورن كما كان في فترات بعيدة جدا تابعا للإلهة عشتارت الفينيقية. ورغم الرومنة التي مست جميع طبقات المجتمع النوميدي، أين رومن العديد منهم لم يغرى السكان لا بالأسماء اللاتينية ولا الإغريقية للآلهة بل بقوا متمسكين بمعتقداتهم الدينية القديمة المحلية.

و يؤكد شنيتي محمد البشير هذه الظاهرة في مقاله « لمحة عن التحريات الأثرية بنوميديا الشمالية»، بمجلة معهد الآثار لسنة 2012، حيث يذكر أن سكان المنطقة تمسكوا بتقاليدهم الدينية ولم يقبلوا بسهولة المسيحية، وهو ما تعكسه طقوسهم الوثنية المتأخرة المجسدة في الأنصاب الجنائزية والنذرية.

و كما ذكر أعلاه، إن بعض هذه البصمات تؤرخ منذ فترات ما قبل التاريخ والتي يمكن التعرف عليها من خلال الرسوم الصخرية التي مست الأطلس الصحراوي، الهقّار، الطاسيلي والمنطقة الوهرانية. وهناك مثال حي عن استمرارية استعمال بعض الرموز في إحدى مواقع إقليم مدينة قالمة، يتمثل في فخار منطقة هيليوبوليس أين يتواصل رسم رمز الإلهة تانيت على بعض الأواني الفخارية للمنطقة، ففي السبعينات قام الباحث جون برنار مورو وهو مختص في فن الفخاريات بجرد جميع الرموز الممثلة على الأواني الفخارية الجزائرية، ومن خلال دراساته اتضحت استمرارية استعمال بعض الرموز الوثنية القديمة إلى يومنا هذا.

ثانيا / الخصائص الجغرافية والتاريخية لمدينة قالمة: فهي تبعد عن مدينة قسنطينة ب 117 كم وب 65 كم عن عنابة فهي محدودة جنوبا بجبل ماونة وشمالا بجبل هوارة وشرقا الفج الأبيض أما غربا بجبل طاية.

أما **تاريخيا** فهي من بين المدن الأثرية للشرق الجزائري التي عرفت تعاقب الفترات التاريخية الهامة تاركة من ورائها بصمات ناتجة عن تطور الفكر البشري وهذا على مختلف المعالم الأثرية المساهمة في قراءة وفهم تاريخ المنطقة.

فهي تقع وسط مجموعة من ولايات الشرق الجزائري الهامة كهيبون(عنابة)، روسيكاد(س كيكدة)،اجلجلي(جيجل)،الطارف، تاغاست(سوق اهراس) وسيرتا(قسنطينة)، وهو الأمر الذي جعلها تتطور وتتفتح في جميع المجالات على حساب هذه المدن.

ورغم هذا التفتح والرومنة التي سادت المدن المجاورة لها فقد حافظت على تقاليدها وعاداتها النوميدية البونية ويعكس ذلك جليا في التسيير الإداري، أين كان قائما على قاضيين بلديين يسمان بشوفط ورئيس قبيلة معترف به من طرف السلطات الرومانية.

ومن أهم مواقع المنطقة التي توفرت فيها المعالم الحاملة للرموز نذكر مدينة Thibilis (عنونة) الواقعة على بعد 30 كم جنوب غرب قالمة، فهي محاذية للطريق الرابط بين هذه الأخيرة ومدينة قسنطينةوأصلها يعود إلى الفترة النوميدية البونية.

نظيف موقع Aquae Thibilitanae (حمام المسخوطين)، الموجود على بعد 20 كم من مدينة قالمة ومنطقة Thabarbusitanis Populus (عين النشمة) الواقعة على بعد 5 كم جنوب غرب المدينة. وتعتبر عين النشمة الموقع الذي توفرت فيه أكبر عدد من الأنصاب النذرية والجنائزية الحاملة للكتابات الليبية والبونية والبونية الجديدة، وحسب الدكتور محمد الخير أورفه لي، فنظرا للعدد الهائل للأنصاب ذات الخصائص الإكونوغرافية البونية فقد وجد توفيت مكرس للإله بعل حمون في هذه المنطقة.

أما من الجهة الشمالية نذكر قلعة بوصبع والتي تقع على بعد 10 كم من مدينة قالمة، وعددها قليل جدا تتميز صورها في المشاهد الإحتفالية الخاصة بتقديم القرابين والأضاحي.

مع الإشارة أن جميع الصور الموجودة في ملحق الصور، قد تم الكشف عنها في كل من قالمة وعين النشمة وحمام المسخوطين. فهي حاليا محفوظة بالمسرح الروماني (المتحف) والمركز

الثقافي ببلدية بن جراح وقلعة بوصبع، أما الرسومات فهي تمثل معالم عين النشمة وقالمة، تم نقلها من طرف دولامار (قائد عسكري فرنسي) في القرن التاسع عشر إلى متحف اللوفر.

وحسب الخصائص الإكونوغرافية لهذه المعالم، يمكن استخلاص أن عبادة الإلهين قد استمرت حتى القرنين الثاني والثالث ميلاديين غير أن الشكل الخارجي للإلهين تغير ، فبعدما أن كان يرمز للإله بعل حمون خلال الفترة النوميدية البونية ببعض الحيوانات كالثور والكبش والرموز الفلكية، أصبح يجسد على هيئة إنسان في الفترة الرومانية ويظهر ذلك جليا على معالم كل من سطيف وجميلة وتيمقاد.

و يرجع السبب في اعتناق الإفريقيون المعبود بعل حمون ساتورن، كونه يمثل سيد الكون فهو الذي يسهر على حماية وخصوبة المحاصيل الزراعية والقطعان وعلاقته الوطيدة بالأرض والخصوبة، أما عن الدور الكوكبي فهو إله الأموات يوفر الحياة السعيدة للميت في حياته الثانية وهنا يكمن الفرق بين الدور الأول والمعبر عنه في الأنصاب النذرية والدور الثاني الذي يجسد على الأنصاب الجنائزية.

كما يوصف بسيد المعبد الذي تقدم فيه الأضاحي البشرية التي استبدلت في فترة متأخرة بالأضاحي الحيوانية. **انظر الصور(5) و(18-1) و(18-2).**

و يذكر أورفه لي محمد الخير أن في نصبين لتوفيت الحفرة بسيرتا، يمثل الإله باللحية وعلى رأسه التاج المزين بالريش، وهو يحمل تارة الصولجان الرامز إلى القوة والسلطة وتارة قرن الوفرة الرامزة إلى الثروة والرخاء. فيما يتعلق بالصولجان فهو يأتي معزولا في وسط النصب، نجده بين رمزي الإلهة تانيت أو بين قرصين. وفي نصبين لمدينة حمام المسخوطين نلاحظ تمثيل الصولجان على شكل حلقات دائرية متراكبة مع غياب العمود أما عن الصولجان المركب من الحلقات الدائرية والعمود فنجده على ثلاثة أنصاب لمنطقة حمام المسخوطين. **انظر الصورة (15).**

و منه فجميع الرموز المنحوتة على الأنصاب النذرية، لها علاقة مباشرة بالمعبودين بعل حمون ساتورن، إله الكون والعالم الآخر وتانيت كايلستس، الإلهة الأم فهما اللذان يسهران على خصوبة كل ما له علاقة بالطبيعة.

كما يوفران مياه الأمطار لإنبات الزرع و يرمز إلى المعبودة تانيت ب « رمز تانيت « الذي يتكون من القاعدة المثلثية والقطعة المستقيمة أي الذراعان الموجودة على قمة المثلث والقرص الرامز إلى الرأس والموجود أعلى الذراعان.

ً / الرموز ذات الطابع الفلكي:

احتلت هذه الرموز مكانة هامة لدى سكان شمال إفريقيا كونها تحمل قيمة دينية فهي تنوب عن الإلهين الرئيسين بعل حمون ساتورن، إله الشمس وسيد الكون والإلهة تانيت كايلستس، الإلهة الأم وسيدة الخصوبة.

و لهذه الرموز الفلكية قيمة سماوية ويظهر من خلال المكانة التي تشغلها على المعالم، فهي مقر أرواح الموتى في حياتهم ما بعد الموت ووظف مشهد الرموز الفلكية لحماية تابوت الميت من العين الحسودة و يعود أصلها إلى ديانات الحضارات الشرقية المصرية وبلاد ما بين النهرين حيث قام الفينيقيون بنشرها على مدن شمال إفريقيا وقام الليبيون بتبنيها حين أدركوا أنها تحمل نفس خصائص ألهتهم ومعبوداتهم.

1. **الهلال أو القمر :** بصفته الأبدية الخالدة، مصيره يشبه مصير الإنسان كونه كوكب يزداد حجمه وينقص إلى أن يختفي، فهو يعبر على التنقل من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة ، ومن بين ظواهره الايجابية السيطرة على دورة الحياة حين يساهم على خصوبة الأراضي بفضل توفير مياه الأمطار. **انظر الصورتين (1) و(19-1).**

و يعلوه أحيانا الساق (La hampe) الذي ينسبه المؤرخ ستيفان قزال إلى الفترة البونية فهو يشبه صولجان الإله بعل حمون الذي يرمز إلى الحماية وخصوبة الأراضي ومنه وفرة المحاصيل الزراعية.

2. **المثلث :** يذكر الباحث كومون أنه يجمع بين ثلاثة آلهة، إله الشمس، إلهة القمر وكوكبا آخرا ربما تكون الإلهة فينوس ولكنه ينتشر بكثرة على أنصاب الفترتين النوميدية البونية والبونية الحديثة الحاملة لمشهد الإلهة تانيت الذي يرمز إلى الخصوبة وتنتشر صوره على معالم المدينة وينحت تارة وحده وتارة مقرونا برأس وذراعان رمز نفس المعبودة. **انظر الصور (3) و(15).**
3. **الزهرة والنجمة :** هما رمزان سماويان وتابعان للإلهين بعل حمون / ساتورن وتانيت / كايلستس وتنتشر صورهما على مستوى السجل العلوي للنصب وتعوضان أحيانا الشمس والقمر. **انظر الصورة (2).**

ً / الرموز ذات الطابع الزراعي :

تأتي في المرتبة الثانية بعد الرموز الفلكية، وتنوعت حسب تنوع المحاصيل الزراعية

وانتشرت حسب طبيعة مناطق شمال إفريقيا إذ نجدها بكثرة في مدينتي كالاما (قالمة) وتوبورسيكونوميداروم (خميسة)، فهي تزين معالم مدينة قالمة ونجدها إما في السجل العلوي أين تحتل مكان الإله لكي ترمز إلى الحياة السعيدة والخلود وتكمن في عنقود العنب وثمرة الصنوبر وقرن الوفرة أوتحتل السجل السفلي أين تظهر في أيادي أصحاب النذر كقرابين مهداة إلى الإله الأعظم.

1. **عنقود العنب :** يعتبر من أهم المنتوجات البكر المهداة إلى الإله بعل حمون ساتورن وانتشر بقالمة وعين النشمة خلال القرن الأول قبل الميلاد إلى أن وصل إلى أوج تطوره أثناء القرنين الثاني والثالث ميلاديين. فهو يعبر على الخصوبة حين تنتشر صورته على الأنصاب النذرية رفقة المنتوجات الزراعية الأخرى سواء كانت أمام أوفي أيادي أصحاب النذر، من جهة ومن جهة أخرى فهو يرمز إلى الخلود والحياة السعيدة حين تجتمع صورته بالكعك والتاج والإكليل وسعفة النخلة. **انظر الصورة** (4).

و لقد تواصل استعمال مشهد عنقود العنب على الطاولات الجنائزية التي تعود إلى الفترتين الرومانية المتأخرة والمسيحية.

2. **ثمرة الصنوبر :** لم تستعمل كثيرا خلال الفترة البونية و لم تنتشر إلا خلال الفترة الرومانية وبفضل طبيعتها الزراعية فهي ترمز إلى التكاثر والخصوبة وبطبيعتها المقاومة لبرودة الشتاء فهي تعبر على الخلود وتجديد الحياة في العالم الآخر وتجتمع صورتها بالهلال في السجل العلوي أو بصاحب النذر في السجل السفلي **انظر الصورة** (5).

3. **قرن الوفرة :** يرمز إلى وفرة الثمار أو المنتوجات البكر المنتشرة في المنطقة، فهو يمسك في بعض الأحيان من طرف الإلهات اللواتي لهن علاقة بالزراعة والوفرة خاصة الإلهة فورتونا كما هو موضح على معالم مدينة مادوروس (مداوروش) بولاية سوق أهراس، أما عن الإله ساتورن فهو يمسكها على الأنصاب النذرية لمدينة بولا ريجيا وتتبين هنا رمزيتها الإلهية التي تنوب عن الإله حين يشغل السجل العلوي للنصب وصورت إما على انفراد أو في يد نفس الإله. **انظر الصور(6) و(7).**

و لعل أجمل وأثرى مذبح وجد في ضواحي مدينة كالاما، هو ذلك المعلم الذي تم العثور عليه في مدينة تيبيليس (عنونة) وبالضبط في ساحة منزل عائلة Antistii ويحمل نقيشة لاتينية أهدت من طرف سكان المدينة إلى السيدة Vibia Aurelia، ابنة الإمبراطور

ماركوس اوريليوس وزوجة L.Antistius.Burrus الذي قتل هذا الأخير من طرف الإمبراطور كومموديوس.

ولقد صور على المذبح المعبود الروماني، إله البيت، بمواصفات محلية وهو يمسك بيده اليسرى قرن الوفرة بينما يضع يده اليمنى على رأس كبش وثمرة الصنوبر.

4. **سنابل القمح :** تنتشر على عدد قليل جدا من الأنصاب النذرية وتحتل السجل السفلي للمعلم حيث تعبر في هذه الحالة على تشكرات صاحب النذر للإله الذي حقق أمنياته وباركه بالحصاد ونجدها إما محمولة أو منفردة وتنتشر على أنصاب كل من عين النشمة وعنونة وحمام المسخوطين.

وهي تلك الرموز التي استعملت للتعبير على فوز الميت بالحياة الثانية وهو معتقد عتيق تعود أصوله إلى البدايات الأولى للحضارة المصرية.

1. **سعفة النخلة :** أصلها سامي واحتلت مكانة هامة في الديانات الشرقية ولقد استعملها السومريون والمصريون والفينيقيون في طقوسهم الدينية حيث كانت توضع في أيادي الآلهة كونها اعتبرت شعارا دينيا للتعبير على الحياة والحظ السعيد تتوفر صورها على عدد كبير من الأنصاب، فهي تؤطر المشكاة وتعوض الإطار المعماري الذي يزين مداخل المعبد أو المصلى. **انظر الصورتين (8) و(9).**

2. **التاج المعبر على الفوز بالحياة الأخرى :** يشغل دائما السجل العلوي للمعلم سواء كان نصبا أو مذبحا، فهو يرمز إلى الفوز بالحياة الأخرى مثل الكعك وسعفة النخلة التي تنتشر صورهما في أيادي الموتى ويمثل إما دائريا أو معينا. **انظر الصور(8) و(19-1).**

3. **الإكليل الزهري :** هو رمز الخلود والفوز بالحياة الأخرى، عادة ما يحمله الشخص على شكل باقة من الزهور أو يزين السجل العلوي لبعض المعالم خاصة الجنائزية ولا النذرية وعلى سبيل المثال هناك نصب جنائزي للمدينة أين نجد الإكليل يعلو رأس الميت ليرمز إلى الخلود والحياة السعيدة. **انظر الصورة (10).**

ً / الرموز ذات الطابع الجنائزي الديني :

1. **المذبح :** تنتشر صورته على عدد كبير من أنصاب المدينة وضواحيها، فعليه تضحى

الحيوانات المقدمة للآلهة وعليه توضع مختلف القرابين وهو على نوعين: المذبح المشتعل والمذبح الطافئ. **انظر الصورة** (12).

2. **الباب المقدسة :** هي ذات تقليد مصري ترسم أسفل الأشخاص، فهي الباب التي تمر عبرها روح الميت لتصل إلى العالم الأخر، وأمثالها موجودة داخل مصطبات وأهرامات الحضارة المصرية، فهي التي تفصل بين الحياة الأرضية والحياة الفلكية الأبدية ومن أشهرها باب مصطبة تي. **انظر الصورة** (13).

3. **المخطط الجنائزي:** هو كتاب خاص بالميت ويمثل مغلقا وتعود أصوله إلى الحضارة المصرية ويتحوي على نصوص ذات طابع سحري لحماية الميت من جهة ومن جهة أخرى فهو يرشد روحه أثناء هجرتها من العالم السفلي إلى العالم الأبدي وتنتشر صورته على نصب جنائزي واحد ولسوء الحظ هو في حالة حفظ سيئة.

ً / المشاهد الحيوانية :

عرفت معالم شمال إفريقيا عامة ومدينة قالمة وضواحيها خاصة تمثيل حيوانات شمسية تعبر على القوة والسلطة كالثور والكبش والعجل.

تنتشر صورها بكثرة على أنصاب المدينة ولقد نحتت لتنوب عن صورة الإله بعل حمون ساتورن أولغرض تمثيلها كقرابين حين اجتمعت بمنتوجات زراعية كعنقود العنب وثمرة الصنوبر والكعك.

1. **الثور:** اقترن هذا الحيوان قديما بالإله قورزيل وهو ابن الإله المصري أمون ولقد وجدت تماثيل من الفخار تعود إلى فترات ما قبل التاريخ وتتمثل في إيدولات من البازلت تم الكشف عنها في منطقة تازروك بالهقار وتنتشر صورته على معالم الحضارات الشرقية وبلاد اليونان.

يرمز هذا الحيوان إلى الخصوبة والوفرة و تنتشر صورته في السجل العلوي لنصب واحد وقد مثل بجانب المذبح والنجمة اللذان يدخلان ضمن التوابع التي تنوب عن لصورة الإله ساتورن والمعبرة على الخلود الأبدي في الحياة الثانية. **انظر الصورة** (2).

2. **الكبش :** يعتبر تابعا حيوانيا للإله المصري أمون ، فهو إله الشمس وحامي الحيوانات وله سلطتان أرضية تكمن في الحماية والأخرى فلكية لها علاقة بكوكب الشمس وهذا واضح

من خلال النقوش والرسومات الصخرية المؤرخة منذ فترة العصر الحجري الحديث في كل من الفزان والطاسيلي الناجر والجنوب الوهراني وخاصة في جبال القصور وجبل عمور وولاد نايل.

نجده على عدد كبير من أنصاب مدينة قالمة وموقعي عين النشمة وحمام المسخوطين وينحت تارة على يمين الشخص فوق المذبح وهو متجه نحو اليمين وتارة يجلس صاحب النذر عليه، وأحيانا نجده في أسفل النصب متجه نحو اليمين وفي حالة ما إذا وجد أعلى النصب فهو يرمز إلى الإله نفسه. **انظر الصورتين (2) و(5).**

3. **العجل :** تؤرخ عبادته إلى حوالي القرن 2 ق م، وهو يأتي في مكان الإله ومنه ينوب عنه كباقي الحيوانات أو ينحت بجانب القرابين ليرمز إلى الهدية التي قدمت للإله.
4. **الطيور:** تنتشر صورها على أنصاب الفترات البونية والبونية الحديثة والرومانية واعتبرت كمبشرات الآلهة كرمز الحياة فهي تعبر عن هجرة الروح بعد الموت إلى مقرها الأبدي و تمتعها بالخيرات وخاصة عندما ينحتها الفنان وهي تنقر بداخل الباطية وهو إناء ذو عروتين استعمله الإغريق والرومان لمزج الخمر بالماء.

و تشمل الحمامة واليمامة اللتان انتشرت صورهما على معالم حضارات المشرق في بلاد الرافدين وفينيقيا إلى جانب العالم الإيجي، أما في المدن الجزائرية القديمة فلقد صورها الفنان في أيادي أصحاب النذر من جهة ويظهر ذلك جليا من خلال أنصاب كل من القيصرية (شرشال) وتيبازة وأوزيا (سور الغزلان) وإيومنيوم (تيقزيرت)، ومن جهة أخرى فهي تحتل أحيانا السجل العلوي للنصب.

5. **الديك :** يرمز في الديانات الشرقية إلى الخصوبة والخلود السعيد في العالم الآخر وتنتشر صورته على نصب واحد تم الكشف عنه في موقع عين النشمة إلى جانب مذبحين وجدا في ضواحي مدينة كالاما، الأول محفوظ بمتحف قالمة والثاني نقله الباحث دولامار إلى متحف اللوفر.

و لقد نقشت على إحدى واجهات مذبح متحف اللوفر زوجان بداخل تاج للتعبير على الخلود والحياة السعيدة، أما على مستوى الجانب الأيمن فنجد آنية جنائزية Patère وإله البيت مرتكز على أداة من المحتمل أن تكون المشعل الذي يرمز إلى الخلود، أما في الجانب الأيسر نلاحظ التاج والباب المقدسة. **انظر الصورتين (19-1) و(19-2).**

6. **السمكة :** هي رمز الحياة والماء إلى درجة أنها رسمت على جدران بعض صخور ومغارات الطاسيلي ويعتبر موقع سيفار من أهم المواقع التي تحتوي على مشهد السمكة من أهمها موضوع الإله المدعو سيفار الذي صور بحجم كبير وهو واقف ويمسك بيده اليسرى سمكة وباليمنى عصا.

و لقد اعتبرت فيما بعد تابعا رئيسيا للمعبودة تانيت للتعبير على فكرة الخصوبة والتكاثر والأمومة حيث تنتشر صورتها على معلم واحد وهو محفوظ حاليا بمتحف اللوفر. **انظر الصورة (15).**

ً / المشاهد العسكرية :

تشمل على الخصوص الأسلحة التي كانت تقدم كقرابين أهديت على شرف الإله بعل حمون/ساتورن وتانيت/كايلستس من قبل رؤساء القبائل والجنود النوميدية والرومانية أو وظفت لتعبر عن وظيفة صاحب القربان أو رغبة هذا الأخير للنجاح في عمله العسكري.

1. **الدرع :** يعتبر من بين الأسلحة الوحيدة التي تم تمثيلها في المنطقة على نصب واحد فقط وهو محفوظ حاليا بمتحف اللوفر حيث يمسكه الشخص الذي قد يكون قائدا أوراكب خيل إفريقي، مع الإشارة أن صورة هذا الأخير تنتشر على أنصاب أبيزار أين تحفظ البعض منها بمتحف الآثار قديمة بالجزائر. **انظر الصورة (16).**

و يعود تمثيل الدرع إلى عصور ما قبل التاريخ حيث كان يجسد على الرسوم الصخرية واستمر استعماله عند النوميديين في الفترات التاريخية كما كان ينحت على واجهات الأضرحة و المعابد ونجده على إحدى واجهات ضريح الخروب وعلى إفريز معبد شمتو بتونس.

أما عن تقنية النحت التي استعملت على هذا النصب الخاص بدرع المدينة، فهي قديمة وبدائية، من المحتمل أنها تنتمي إلى الفترات الأولى للحضارة البونية أو قبلها أي في الفترة الليبية.

و يذكر المؤرخ رافوازيي أنه تم العثور على أنصاب تحمل نفس الخصائص الإكونوغرافية بالقرب من الضفة الغربية لواد السخون غرب مدينة قالمة.

كما أن الأنصاب توفر لنا عناصر معمارية تتمثل أولا في واجهة المعبد مع الجبهة المزينة بأعمدة وعارضة أين تجتمع الرموز الفلكية وتأتي إما مقوسة أو منحنية أومثلثية الشكل.

أما عن الأعمدة التي تدخل ضمن العناصر المعمارية الأساسية فنجدها إما ذات الجذوع الملساء أوالمقناة كما تتنوع قواعدها وتأتي إما اتيكية أو دورية او توسكانية.

إن هذه المشاهد الإكونوغرافية ما هي إلا انسجام لمعتقدات محلية يعود تأريخها إلى فترات ما قبل التاريخ، وأجنبية فينيقية كانت أو مصرية أو إغريقية أو إيطالية رومانية، تطورت مع تطور الفكر البشري، واستمر توظيف البعض منها كمثلث الإلهة تانيت على بعض الأواني الفخارية المعاصرة وهذا في موقع هيليوبوليس القريب من مدينة قالمة.

و لم توظف الرموز التي ذكرت سالفا على المعالم الجنائزية والنذرية فحسب، بل انتشرت صورها على الأواني الفخارية الجنائزية المؤرخة منذ فترة فجر التاريخ والتي اكتشفت في كل من الركنية بقالمة وقاستل بتبسة وتيديس بقسنطينة، إلى جانب القطع النقدية التي تؤرخ في الفترتين النوميدية البونية والرومانية وكذلك اللوحات الفسيفسائية للفترة الرومانية التي تم الكشف عنها في كل من تبسة وجميلة وتيبازة وتيمقاد.

و إذا قارننا بين رموز مدينة قالمة ورموز المدن الأخرى كسطيف وجميلة وسيرتا وتيديس ومادوروس وغيرها من المواقع التي نالت شهرة كبرى في الفترة القديمة، فنستخلص أنه رغم تواجد نفس الرموز على المعالم المختلفة وعلى المدن المتنوعة فهناك رموزا لا نجدها على معالم بعض المناطق كالأسد مثلا، الذي هو خاصية لمدينتي سطيف وجميلة أو الدرج الذي ينتشر على معالم مدينة تيديس بقسنطينة فقط، أو العدد الهائل للأطباق التي تزين الطاولات الجنائزية لمدينة مادوروس.

وهكذا فلقد جسدت لنا أنصاب مدينة كالاما والمواقع الأثرية التابعة لها كل هذه الرموز المقدسة والمتداولة لديهم خلال الفترة الممتدة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثالث ميلادي، للتعبير على فكرة استمرارية اعتناق الأفارقة المعبودين المحليين الإله بعل حمون ساتورن، إله الخصوبة والإلهة تانيت كايلستس، الإلهة الأم وسيدة العالم السفلي.

كما أنها مكنتنا من التعرف على الأضحيات الحيوانية كالثور والكبش والقرابين التي قدمت إلى هذه القوى الخفية وخاصة تلك المنتوجات الزراعية البكر لغرض حماية الممتلكات والمحاصيل الزراعية وحتى الحيوانات.

ولقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى بعض النتائج المتميزة يمكن ترقيمها على النحو التالي:

1. ارتبطت الإشارات والرموز الإلهية بمظاهر الحياة اليومية الدنيوية والحياة الآخرة، ساعدتنا على تسليط الضوء لفهم التطور الديني العقائدي عند أهالي سكان مدينة كالاما والمدن الجزائرية القديمة الأخرى منذ فترات ما قبل التاريخ إلى غاية أواخر الفترة القديمة.
2. أوحت لنا المعطيات التصويرية على الأنصاب أنها كانت توجد تقاليد خاصة لوضع الرموز على هذه المعالم جنائزية كانت أم نذرية وتختلف رمزية هذه الإشارات حسب المكان الذي تشغله الرموز.
3. تطورت الديانة في مدينة كالاما خاصة وإقليم نوميديا عامة بتطور فكر وحياة الإنسان وتعلقت بداية باعتناق معبودات محلية، التمست من الطبيعة وشملت آلهة المياه والكهوف والحجارة والأشجار والحيوانات.
4. رغم نذرة الموثوقات الكتابية والأثرية الخاصة بالفترة النوميدية، غير أننا استطعنا التعرف على المعتقد الديني الذي كان سائدا آنذاك اعتمادا على بعض النقوش التي وجدت على إحدى واجهات كهف جبل طاية بالقرب من قالمة.
5. استمر الإنسان المحلي في الفترة الرومانية من اعتناقه لبعض الآلهة الليبية-البونية تحت أسماء لاتينية وتعلق الأمر بالإله ساتورن الإفريقي والإلهة كايلستس وإله التجارة والمهاجرين ماركوريوس وإله الطب إسكولاب إلى جانب إله الخمر باكوس الذي لقبه الفينيقيون بالإله شادرافا.

ملحق الصور:

الصورة (01) تمثيل الهلال والقرص الشمسي في القسم العلوي للنصب كتابعين للإله بعل حمون سالورن

الصورة (02) توابع الإله بعل حمون سالورن، الكبش والثور والنجمة

الصورة (03) القرص الشمسي، الالهة تانيت وتابعها الصولجان

الصورة (04) تمثيل صاحب النذر داخل المعبد ذو الواجهة المؤطرة بسعفة النخلة وهو يحمل بيده اليسرى عنقود العنب

الصورة (05) يعلو صاحب النذر الهلال وهو يمسك بيد الكعك وبالأخرى ثمرة الصنوبر وتحته خروفا

الصورة (06) يمسك صاحب النذر قرن الرخاء وعنقود عنب وهو جالس على الخروف

الصورة (07) تمسك صاحبة النذر بيد قرن الوفرة وبالأخرى عنقود عنب

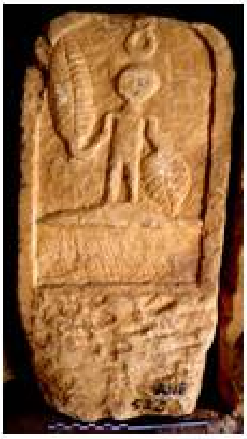

الصورة (08) يعلو الكعك صاحب النذر وهو يمسك بيديه سعفتين نخلة

الصورة (09) تمثيل سعفتين نخلة تؤطران مدخل المعبد

الصورة (10) يعلو الهلال صاحب النذر الذي يمسك عنقود عنب وخروفا بحجم صغير

الصورة (11) تمثيل زوجين داخل التاج النباتي وفي الأسفل إكليل تعلوه زهرة

الصورة (12) يرمز المذبح في هذه الحالة إلى شخصية الإله بعل حموث ساتورن المتمثلة في سيد الأضحيات

الصورة (13) تمثيل الباب المقدسة المفتوحة المعبرة على هجرة الروح إلى العالم الأبدي

الصورة (14) تمثيل الأطباق كرموز ذات طابع جنائزي ديني

الصورة (15) تمثيل الإلهة تانيث وتوابعها المتمثلة في الصولجان والمذبح والسمكة التي ترمز إلى التكاثر والخصوبة

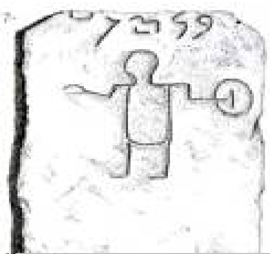

الصورة (16) تمثيل مشهد القائد أو الإله الحامل للدرع العسكري

الصورة (17) تمثيل شجرة الحياة (تقليد شرقي) وهي تابع الإلهة تانيث

الصورتين (1-19) و(2-19) تمثل الديك كقربان للإله في الصورة الأولى بينما يرمز في الصورة الثانية (الرسم) إلى الخلود الأبدي في الحياة الثانية

الصورتين (1-18) و(2-18) تمثيل الحيوانات المهداة كقرابين للإله بعل حمون ساتورن (الخروف في الأعلى والأرنب في الأسفل)

هوامش البحث:

محمد البشير شنيتي، نوميديا وروما الإمبراطورية، تحولات اقتصادية واجتماعية في ظل الاحتلال، كنوز الحكمة، الجزائر، 2012، ص، 306.

LEGLAY Marcel, Saturne Africain, Histoire, Edition E.DE.BOCCARD, Paris, p.135.

LEGLAY Marcel, Les religions de l'Afrique romaine, in : Africa Romana, 1983, p.58

MOREAU Jean-Bernard, Les grands symboles méditerranéens dans la poterie algérienne, SNED, Alger, 1977

GRELLOIS Eugène, Études archéologiques sur Ghelma (ancienne Calama) et Hammam Meskhoutin, (Extrait des Mémoires de l'Académie nationale de Metz, année 185152-), Metz, Imprimerie S. Lamort, 1852, p.5.

LEPELLEY Claude, Les cités de l'Afrique romaine au bas-empire, Paris, 1981, p.90

GSELL Stéphane et JOLY Ch, Khamissa, M'daourouch, Announa, 3ème partie, Announa, Adolphe Jourdan, Alger, 1918, p.7

RAVOISIE Amable, Exploration scientifique de l'Algérie, tome II, Paris, 1850, p.21

ORFALI Mohamed Kheir, Les cultes et les divinités africaines avant le monothéisme, l'évolution de l'image de la divinité, in : L'Algérie en héritage, p.122.

TOUTAIN Jean, Les cités romaines de la Tunisie, essai sur l'histoire de la colonisation romaine dans l'Afrique du nord, Paris, 1896, p.218.

LEGLAY Marcel, Les dieux de l'Afrique Romaine in : Archéologia, tome 40, 1971 ; p.68

Ibid, Les religions de l'Afrique Romaine, in : Africa Romana, 1983, p.56

GSELL Stéphane, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, tome IV, Librairie Hachette, Paris, 1913, p.263

انتشرت هذه الظاهرة في الحضارة المصرية على واجهات التوابيت، حيث رسمت العين والأذن لإبعاد العين الحسودة.

CUMONT Frantz, Recherches sur le symbolisme funéraire des romains, chapitre III, la lune séjour des morts, Librairie orientale, Paul Geuthner, Paris, 1942, p.210

ELIADE Mircéa, Traité d›histoire des religions, Payot, Paris, 1968, p.139

LEGLAY Marcel, Saturne Africain, Histoire, p.196

Idem, p.197

Idem, p.199

تعتبر ثمرة الصنوبر تابعا رئيسيا للإله ساتورن الإفريقي ما دام وظفها الفنان في السجل العلوي المخصص له، وينتشر هذا المشهد في كل من خنشلة وتيمقاد وتبسة.

DE PACHTERE F.G, Musées d›Algérie et de la Tunisie, Musée de Guelma, Paris, Ernest Leroux Éditeur, 1909, p.51, planche IX, figures 4 et 6.

LEGLAY Marcel, op.cit., p.396

BERTRANDY François et Maurice S, Les stèles puniques de Constantine, Edition de la Réunion des musées nationaux, Paris, 1987, p.68

PICARD Gilbert, Les religions de l›Afrique du nord antique, Paris, 1954, p.147

كان يوضع المخطوط الجنائزي أو كتاب الموتى داخل التوابيت المصرية بعد عملية التحنيط لإرشاد روح هذا الأخير في حياته ما بعد الموت.

وجدت ببلاد اليونان تماثيل صغيرة الحجم من الطين لعدة ثيران تعود إلى الألفية الثانية قبل الميلاد

ويعتبر الثور تابعا رئيسيا للإله الأعظم.

LEGLAY Marcel, Saturne Africain, Histoire, p.136

Idem, p.138 ; CHEVALIER J et GHEERBRANT A, Le dictionnaire des symboles, tome II, Edition SEGHERS, Paris, 1973, p.138

BENOIT Luc, Signes, symboles et mythes, P.U.F, 1977, p.48

DELAMARE AD.H.AL, Explorations scientifiques de l›Algérie pendant les années 18401845-, Archéologie, Paris, Imprimerie, Nationale, 1850, planche n°177, figures 4, 5 et 6.

Idem, planche n° 178, figure 7

المتحف الوطني سيرتا، الجزائر النوميدية، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص، 198.